رسالة التآخي

(٣)

على طريق الأسرة المسلمة

ن سماحة العلامة
حسين فضل الله

إصدار
رابطة أصدقاء المسجد

على طريق الأسرة المسلمة

محمد حسين فضل الله

على طريق الأسرة المسلمة

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أدركت الدول الاستعمارية الغربية ، بعدتجربتها المريرة في الحروب الصليبية أن إحكام السيطرة على العالم الاسلامى ، مع ما يمثله من ثقل استراتيجي واقتصادي ، ومن تهديد مباشر لمصالحها وأغراضها العدوانية .. لا يمكن أن يتم ما دامت الامة الاسلامية تمتلك سلاحها الذي لا يقهر .. سلاح الايمان القوي برسالتها .. والتمسك باسلامها .

وقد دفع ذلك ، بالدول الاستعمارية إلى إعطاء جهودها بعداً جديداً .. بعداً يركز على إحداث الانفصام بين المسلمين والاسلام .

ونجح المستعمرون ، للأسف ، في مهمتهم إلى حد كبير .. نتيجة التخطيط والدأب الطويل .. بل ، في الدرجة الأولى ، نتيجة لحالة التخلف الحضاري التي دبت في جسم الأمـة منذ عصر الانحطاط .. ولن يسعنا في هذا المجال الضيق طبعاً ، أن نحيط بجوانب المسألة كلها .. إذ تستوعب بتفاصيلها وأبعادها حقبة خطيرة حافلة من تاريخ أمتنا . وانما يهمنا أن نشير هنا بالتحديد ، إلى ظاهرة بارزة أفرزتها عملية الغزو الفكري .. وهي ظاهرة التقليد الأعمى

للغرب في شتى مظاهر حياتنا .. ومنها ما يختص بشؤون الأسرة .. هذا القطاع الحيوي الذي حظى باهتمام مكثف من قبل أعدائنا .. ويكفي أن نستعرض الكتابات والدعوات المدسوسة التي تتناول هذا الجانب من حياة المسلمين .. لنرى ما تحفل به من تشويه وافتراء على الاسلام ..

كما يكفي أن نلتفت إلى مدى التأثر بالتقاليد والأعراف الذي أصبح يطبع تعامل المسلمين مع مسألة الزواج . فمن غلاء المهور إلى تأخير الزواج خضوعاً لمتطلبات الحياة المادية . ومنطق المضاهاة .. إلى زعزعة نظام الأسرة عن طريق تجاوز الحقوق والواجبات التي حددتها شريعة الاسلام لكل من الزوجين .. إلى انصراف المرأة عن الاهتمام ببيتها وتربية أولادها بدعوى تحريرها من الامتهان والاستعباد ....

إن المحاولات العديدة التي تقوم في مجتمعنا اليوم داعية إلى تنظيم الأسرة وحمايتها ، على افتراض حسن القصد من ورائها ، لن تؤدي أبداً إلى نتيجة ايجابية .. ما دامت تعتمد المقياس الغربي في تشخيص الداء ووصف الدواء . فلا صيانة للأسرة .. ولا تنظيم يحفظ وحدتها وروابطها إلا من خلال تطبيق الاسلام واعتماد حلوله العادلة .

وعلامتنا المجاهد الحجة السيد محمد حسين فضل الله ، يعمد في محاضرته الجديدة القيمة هذه «على طريق الاسرة المسلمة»، إلى وضع النقاط على الحروف .. متناولاً الأسلوب المتبع في طريقة

الزواج .. وموضحاً مشاكله وأخطاءه وأخطاره .. ليقدم بعد ذلك الحلول الاسلامية لهذه القضية الهامة في حياة المسلمين ..

معالجة مخلصة .. يجدر بها أن تُقرأ لتطبَّق .. نقدمها إلى كل أسرة تبحث عن السكينة والاستقرار ، في عالمٍ افتقد طعم السكينة والاستقرار .

أسرة التآخي

اللجنة الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

في هذا اللقاء الطيّب الذي نجتمع فيه من أجل الاحتفاء بولادة أُسرة مسلمة جديدة ، نرجو أن تسير على خطىٰ الإسلام في كل ما تعيشه وتمارسه من وسائل وأهداف .

في هذا اللقاء الطيب الذي يحتفظ بأسلوب جديد من أساليب الاحتفاء بالأعراس .. نواجه اتجاهاً جديداً نحو التغيير إلى الأفضل ، فيما نمارس من تقاليد ، وفيما تعودناه من أساليب الاحتفال بمناسبات الفرح فقد تعودنا التعبير عن الغبطة بمثل هذه المناسبة بأساليب اللهو والعبث التي تغرق الجمهور بالأجواء اللاهية العابثة التي يبتعد فيها الإنسان عن ذاته في غيبوبة النشوة والخدر اللذيذ ، الأمر الذي يجعل الإنسان في فيضان عاطفي أو شعوري لا يملك معه إلا الذوبان في تيار الشهوات ، مما قد يثير في المجتمع الكثير من السلبيات الأخلاقية والنفسية .

وقد لا نريد ـ في هذه الملاحظة ـ أن نمنع الإنسان من الأخذ بأسباب اللهو ، في مناسبات الفرح ، أو أن ندعوه إلى أن يخنق مشاعره وعواطفه في أجواء الوقار الجامدة التي تجعله يتجمد في أوضاعه بعيداً عن كل حركة أو تعبير .. لأن الإسلام لا يمنع الإنسان من ممارسة اللهو البريء بل قد نجد في بعض الأحاديث الشريفة الدعوة إلى ممارسته بطريقة إيحائية ، فقد ورد في الحديث الشريف :

« ينبغي أن يكون للمؤمن ثلاث ساعات .. ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يرم بها معاشه ، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذتها في غير محرّم فإنها عون على تينك الساعتين » .

وقد جاء في الحديث المأثور عن بعض أئمة أهل البيت فيما يرويه عنه بعض أصحابه ، فقد جاء عن علي بن جعفر عن أخيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : قال : سألته عن الغناء في الفطر والأضحى والفرح ؟ قال : لا بأس ما لم يُعص به ، وفي حديث آخر .. مالم يزمر به .

بل كل ما نريده .. أن لا نستسلم للأجواء اللاهية العابثة استسلاماً كلّياً ، بل نعمل على أن نفسح المجال لوقفة متأملة هادئة يقف فيها العروسان ، ويشاركهما في ذلك المجتمع من أجل أن يتأملوا في هذه الخطوة الجديدة التي تعتبر بداية مرحلة جديدة من مراحل الحياة ليكون الدخول إلى الحياة الزوجية بوعي لمسؤولياتها ، ومواجهةٍ لنتائج هذه المسؤوليات من أجل أن

نتفادى الوقوع في المشاكل المعقدة التي قد تكون نتيجةً طبيعية للاقبال غير الواعي على إيجاد هذه العلاقة بعيداً عن كل تفكير. ولهذا استحب في بداية الزواج ، أو في حالة العقد ، أن يُلقي الخاطب أو العاقد خطبة يذكّر فيها المجتمع بتقوى الله وإطاعة أوامره والانتهاء عن معاصيه ، ويعرّفهم الأسس الروحية التي ترتكز عليها العلاقات الإنسانية في الإسلام ، بمختلف الأساليب التي تقتضيها طبيعة الأحوال ، ليعيش الطرفان ، وأهلوهما الأجواء الروحية الصافية التي تشعرهم بالمستوى الأمثل لهذه العلاقات في الإسلام .. وقد يقتضي الحال أن تُذكر ، في هذا المجال التشريعات الإسلامية للزواج في تحديدها لعلاقة الزوج بزوجته وعلاقة الزوجة بزوجها فيما لهما من حقوق ، وفيما عليهما من واجبات .. فإن إثارة هذه الأمور قد تهيء الجو لحياة زوجية واعية من ناحية تشريعية ، بالإضافة إلى المفاهيم الإسلامية العامّة .. وقد لا نجد في الأحاديث المأثورة للخطب التي رويت في هذا السبيل مثل هذه التفاصيل ، ولكن لا نعدم استيحاء ذلك من أفكارها العامّة التي لا تحصر الفكرة في إطار ضيق محدود بل تطلقها في المجالات الإسلامية العامّة .

* * *

وعلى ضوء هذا فإننا نعتبر هذا التقليد الجديد الذي تقومون به ، بداية طيبة لخطوات إسلامية واعية ، تتيح لكل فرد منا أن ينطلق من موقع مسؤولياته في أيّ موقع من مواقع الحياة .. ممّا

يساعد على إيجاد الشخصية الإسلامية المتماسكة الثابتة الخطى في مهبّ الرياح ، التي تمثل الإنسان القويّ صاحب الموقف ، لا الإنسان الضعيف المهزوز الذي لا يتماسك أمام الزعازع ، فإن الإنسان ـ الفرد أو الإنسان ـ المجتمع الذي يتحرك في حياته على أساس التيارات التي تدفع الحياة من بعيد ، سواء في ذلك تيار العادات أو تيار التقاليد أو غيرهما ، يظل محكوماً في مسيرته ، بقوّة اندفاع التيار دون أن يستطيع الاحتفاظ بخطاه ، أو الوقوف في أي موقع من مواقع اندفاع هذا التيار أو ذاك ، وبذلك يعود مجرّد صدىً للآخرين ، أو مجرّد خشبة في مجرى التيار ، لا يملك أن يريد أو لا يريد ، ولا يستطيع أن يؤيد أو لا يؤيّد .

إننا نشعر بضرورة التحول عن هذا الواقع لنقف في كل مرحلة من مراحل الحياة أمام تقاليدنا وعاداتنا وقفة تأمل وهدوء لنحاكم الفاسد منها أو نناقش الجامد الذي تجاوزه الزمن فلم يعد يمثل أي شيء يوحي بالحركة والحياة ، لنعزل عن حياتنا كل الأشياء المضرّة ، ونناقش كل الأوضاع القلقة ، ونحاكم كل الأساليب التي كانت وليدة مراحل سابقة قد تجاوزتها خطوات الحياة .

* * *

وإننا ـ في هذا الإطار ـ نقف لنحَيّيّ هذا التقليد الإسلامي الجديد الذي يلتقي فيه المسلمون رجالاً ونساءً ليبدأوا الخطوة الأولى

في طريقنا التغييري الطويل .. وليتفهموا طبيعة التشريع الإسلامي للزواج من ناحية المضمون والشكل والإطار ..

* * *

ونحن ـ في هذا اللقاء ـ في محاولة جادة لوضع النقاط على الحروف في عدة جوانب من واقع الأسلوب المتبع في طريقة الزواج ، والعمل على توضيح بعض مشاكله أمام حلولها الإسلامية .

١ ـ الأسرة في خطى المسؤولية :

قد نطرح على أنفسنا سؤالاً محدداً أمام قضية الزواج في الإسلام ..

لماذا الأسرة .. ولماذا هذه العلاقة الزوجية المعقدة ؟

ربما نستوحي من القرآن الكريم أنَّ قضية الزواج والنزوع إلى تكوين الأسرة ، ينبعان من الشعور العميق بالحاجة إلى أن يكمل الإنسان ـ رجلاً وامرأة ـ ذاته من خلال ارتباطه بالجنس الآخر ، انطلاقاً من الفطرة التي فطر الله الناس عليها الكامنة في تكوينه الإنساني ، الذي تختلط فيه الحاجة الروحية إلى الزوجية ، بالحاجة الجسدية إلى ارواء الرغبة في إطار روحي حميم .. الأمر الذي يدفع بالإنسان إلى الشعور الدائم بالقلق الروحي الذي يفترس طمأنينته ، فيؤدي به إلى البحث عن الفرصة التي تحقق له ذلك .

وقد نستطيع التعرف على طبيعة هذه الفطرة ، من خلال ملاحظة النماذج الإنسانية التي قد تندفع إلى إرواء الغريزة إلى حدّ كبير ، بعيداً عن إطار الزواج ولكنها تظل تعيش الحنين والرغبة إلى أجواء الزوجية لأنها تشعر بالفراغ الكبير الذي يغمر حياتها في ظل العزوبيّة ، مهما حاولت أن توحي لنفسها بالامتلاء ، فإننا نجد في ذلك أن قضية الحاجة إلى الزواج ليست هي الحاجة إلى إرواء الغريزة أو اشباعها ، بل هي ـ بالإضافة إلى ذلك ـ حاجة روحية إلى الاتحاد الروحي والجسدي مع إنسان آخر ..

وهذا ما نستوحيه من الآية الكريمة في قوله تعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ..

فقد نلاحظ في الآية التأكيد على الوحدة في أصل الخلقة والتكوين ، للإيحاء بالحالة النفسية التي تحدثها لدى الطرفين .. وذلك في فقرة ﴿ **خلق لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ ..

ونلاحظ ـ إلى جانب ذلك ـ التركيز على أن الغاية هي حصول الطمأنينة والسكينة الروحية التي يشعر الإنسان ـ من خلالها ـ أنه وجد ذاته بتمامها .. وتكتمل الصورة في اعتبار المودّة والرحمة أساسا للعلاقة في طبيعة التكوين . وقد يلفت نظرنا ـ ونحن نتابع التشريعات الإسلامية ـ أن الإسلام يريد للزوجين أن يعيشا الشعور الروحي المرتبط بالله حتى في بداية الممارسة

الجنسية لئلا يتحول الزواج في شعور الزوجين إلى عملية جسدية خالصة لا ترتبط بالمعاني الروحية ، بل يعود علاقة تمتزج فيها المادة بالروح في عملية اتحاد وتكامل انطلاقاً من الخط الإسلامي الأصيل الذي يريد للإنسان أن يسير عليه في كل أفعاله وأقواله وعلاقاته ، في تزاوج الجانب الروحي والجانب المادي للحياة ..

فقد ورد في الأحاديث المأثورة الشريفة عن أئمة أهل البيت بعض التعاليم التي تجعل من بداية الحياة الزوجية صلاة خاشعة لله ، وتأكيداً على الجانب الشرعي للعلاقة ، من أجل الإيحاء بالطبيعة العملية للسلوك في الحاضر والمستقبل فقد ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال : إذا دخلت بأهلك فخذ بناصيتها واستقبل القبلة وقل :

اللهم بأمانتك أخذتها وبكلماتك استحللتها فإن قضيت لي منها ولداً فاجعله مباركا تقياً ... ولا تجعل للشيطان فيه شركاً ولا نصيباً ..

وقد جاء عن الإمام محمد الباقر (ع) ـ في حديثه إلى بعض أصحابه ـ إذا دخلت فمُرهم قبل أن تصل إليك أن تكون متوضّية ، ثم أنت لا تصل إليها حتى توضّأ وصل ركعتين ثم مجّدِ الله وصل على محمد وآل محمد ثم ادع الله ومُر من معها أن يؤمنوا على دعائك وقل : اللهم ارزقني إلفها وودّها ورضاها وارضني بها واجمع بيننا بأحسن اجتماع وآنس ايتلاف فإنك تحب الحلال وتكره الحرام » ..

وفي حديث الإمام جعفر الصادق إلى بعض أصحابه ، قال : « إذا أراد الرجل أن يتزوج المرأة فليقل : أقررت بالميثاق الذي أخذ الله « أمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ..

إننا نشعر ونحن نتابع هذه الكلمات الطيبة أن الإسلام يريد للزوج أن يبدأ من خلال المسؤولية الروحية والعملية ، لا من خلال النهم الغريزي الذي يريد اشباعه .. ولعل القيمة الكبيرة لهذا الجو أن يفتح قلب الإنسان وروحه على طبيعة الخطوات التي يجب أن يخطوها في هذا السبيل فيتحرك من خلال الوعي المنفتح على الله ، لا من خلال العادة العمياء التي تسير على غير هدى .

* * *

وقد نستشعر من الآية الكريمة في تأكيدها على « السكن » و « المودة والرحمة » كطابعٍ يطبع الحياة الزوجية في مفهوم الإسلام .. قد نستشعر نوعية الأجواء التي يريد للزوجين أن يعيشاها في ظل حياتهما الجديدة .. فليست هي الأجواء التي يحقق فيها كل واحد منهما مصالحه الذاتية ، أو أطماعه الخاصة لدى الآخر ، وليست هي الأجواء التي تتحفز فيها الشهوة الغريزية المجردة لتكون الأساس المتين لبناء هذه الحياة .. بل هي الأجواء التي تؤكد الإنسانية فيها ذاتها عندما تنطلق العلاقة من منطلق إنساني رحيب صاف يشعر فيه كل طرف بأنه مشدود إلى طرفه الآخر برباط المودة والمحبّة .. الأمر الذي يجعل كلاً منهما باحثاً عما لدى الآخر من أسس المحبة الدائمة المرتكزة

على التأمل والتفكير لئلا تكون مجرد عاطفة طارئة لا تلبث أن تتضاءل أو تذوب أمام حالات الرغبة المضادّة ..

وإذا استطاعا أن يعيشا هذا الشعور العقلاني بالمحبة والمودة ، فستخضع حياتهما المشتركة للعفوية والعطاء والسماح في كل ما يجدُّ فيها من متاعب ومشاكل وآلام .

ثم نجد في كلمة « الرحمة » إيحاءً جديداً بطبيعة العلاقة الزوجية من جانب آخر .. وهو الجانب الذي يتصل بالفهم الواعي المسؤول لدى كل منهما عن الآخر من خلال ظروفه العائلية والنفسية والاجتماعية .. فإذا عاش كل منهما ظروف الآخر أمكنه أن يتعامل معه على أساس تقديره لتلك الظروف ويتعايش معه من خلال محاولة الانسجام ــ مهما أمكن ــ مع الأجواء التي تفرضها ، والمشاعر التي تخلقها في داخل النفس .. فيبتعدان ــ في هذه الأجواء ــ عن الأنانيات الذاتية التي تحطم الحياة الزوجية عندما يندفع كل منهما ليفكر بنفسه بعيداً عن مصلحة رفيقه .. فيبدأ بالبحث عن أفضل السبل لاستغلال هذه العلاقة لمصالحه ومزاجه وأطماعه .. وتأتي الرحمة لتبدل كل هذه المشاعر والوسائل فيتجه التفكير ــ من جديد ــ إلى أنَّ هناك حياة مرتبطة بحياته ، وأن لهذه الحياة ظروفاً تختلف عن ظروف حياته ، وأنَّ للإنسان الآخر الذي يعيش معه ، أجواء فكرية وروحية ونفسية تختلف عن أجوائه فيما عاشه من بيئة مختلفة عن بيئته وأسلوب في التربية مختلفة عن أسلوب تربيته .. وتأثيرات

عاطفية وفكرية متنوعة لا تتفق مع التأثيرات التي شاركت في تكوين شخصيته .. فيعمل على مراقبة ذلك كله عندما يتعامل مع الكلمة التي ينطقها ، أو الحركة التي يطلقها ، أو العمل الذي يقوم به .. الأمر الذي يجسد الرحمة بالممارسة بدلاً من تجسيدها بالشعور الطيب الساذج فيرحم كل منهما آلام الآخر وأحلامه وتطلّعاته من خلال تأثيرها في حياته .. حتى الخطأ الذي يراد اصلاحه لا بد من التعامل معه برفق وحكمة ، لئلا يحوِّله إلى عقدة بدلاً من تحويله إلى صواب ..

وبذلك تتحول الحياة الزوجية إلى «سكن» يسكن إليه كل منهما في حياته الداخلية والخارجية حيث يعيشان الهدوء الروحي والعقلي بعيداً عن المشاحنات والمنازعات التي تشوّه جمالها وتسيء إلى طبيعتها الرحبة .

وأحسب أننا لو عشنا المودة والرحمة على هذا الأساس لاستطعنا أن نخفف كثيراً من المشاكل الزوجية التي نعايشها مما يرتكز على إهمال كل طرف ما لدى الطرف الآخر من ظروف ومؤثرات ، وعلى « الأنانية » التي توحي للإنسان بالواجبات الملقاة على عاتق صاحبه تجاهه من دون تفكير بالحقوق المترتبة عليه .

* * *

دور الأسرة في تربية الشخصية :

وقد نجد في نظام الأسرة في التشريع الإسلامي تركيزاً على

جانبين أساسيين من جوانب تربية الشخصية الإنسانية مما قد لا يتوفر في غيرها بشكل دقيق :

الجانب الأول : التدريب العملي على التدرج في حمل المسؤولية .. ففي الحياة الزوجية يتحمل كل من الطرفين مسؤوليته تجاه الطرف الآخر كما يشتركان في حمل المسؤولية تجاه الأولاد ، مما يحقق لأيٍّ منهما تجربة جيدة في مواجهة المسؤوليات العامة والخاصة فينطلق إلى الحياة من موقع الشعور بالمسؤولية على أساس أن له حقوقاً على الآخرين في مقابل ما لهم عليه من حقوق وواجبات ، وبذلك يستطيع أن يضع يديه على طبيعة الزيادة والنقصان في حقوقه وحقوق الآخرين .. ولعل ذلك هو الذي توحي به الآية الكريمة : ﴿ **ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** ﴾ .. فلم تجعل للرجال إلاَّ درجة واحدة يتميزون بها في قوامة الرجال على المرأة التي استحقها نتيجة بعض الميزات الطبيعية ، وقيامه بمسؤولية الانفاق على البيت الزوجي .. وربما كان لهذا التحديد في مواجهة المسؤولية وممارستها أثره في تخفيف النظرة المتعالية التي ينظر بها الرجل إلى دوره إزاء المرأة ، ليعرف أنَّ القضية ليست قضية سيادة وعبودية بل قضية مراعاة بعض الميزات الأساسية المحدودة من الناحية العامّة ..

وإذا استطاع الزوجان أن يعيشا المسؤولية بهذا الوعي والعمق والامتداد أمكنهما أن يحصلا على ذهنيّة تواجه أبعاد المسؤولية

بعملية حسابيــة دقيقة لا تستسلم للعاطفة ، ولا تنهــار أمام الانفعالات .. واستطاعا ــ من خلال نجاحهما في هذه التجربة الصغيرة ــ أن يحققا النجاح في مجالات المسؤوليات الأخرى في الحياة التي قد تكبر وتصغر تبعاً للظروف العامة والخاصة التي تفرض نفسها على الإنسان .

الجانب الثاني : الجوّ الروحي والعاطفي الذي يعيشه الأولاد في داخل الأسرة فقد نجد في هذا الجوّ مالا نجده في غيره من المؤثرات العميقة التي تشارك في البناء الروحي والعاطفي للطفل .. فإن التربية أو الرعاية لا تعتبر في هذا الجوّ وظيفة يمارسها الأبوان بروحية المهنة ــ بل تعتبر رسالةً يحملانها من خلال المشاعر الداخلية المشبعة بالعاطفة والحنان .. وبذلك يعيش الطفل في تغذية عاطفية ممزوجة بروح الأبوّة والأمومة مما يجعله في حالة اشباع عاطفي مستمر ، وشعور عميق بالالتصاق بمنابع الحياة التي تمده بالشعور الدائم بالأمن والطمأنينة والقوّة ، بعيداً عن كل الحالات التي توحي بالفراغ واليأس والضياع .. ولعلّ من بديهيات الأمور أن الرعاية كلما توفرت للطفل بشكل مباشر ، كلما كانت العناية أكثر والإحساس بالتجاوب أعمق ، فإن هناك فرقاً واضحاً بين أن يحصل الإنسان على الرعاية والعناية بشكل خاص ، وبين أن يحصل عليها في ضمن مجموعة كبيرة ، فقد نجد في المشاعر والنتائج التي تتركها الرعاية الخاصة ، الغنى الكبير الذي لا نجده في الحالة الشاملة التي يتحول فيها الإنسان إلى رقم من

الأرقام الكثيرة في قائمة المسؤولية العامة ..

وبكلمة واحدة : إن قيمة الأسرة ، هي في هذا الجو الذي تتيحه للطفل في الإرتواء العاطفي الذي يوحي له بالمحبة والحنان والامتلاء ويجعله موضع الاهتمام والرعاية المباشرة من الأبوين مما لا تتيحه له المحاضن الكبيرة التي تتحول الحاضنات فيها إلى موظفات يمارسن المهمة بعقلية المهنة ، لا بروحية الرسالة مما يفسح المجال للمزيد من الجفاف الروحي والإهمال التربوي .

* * *

مسؤوليتنا في حفظ الأسرة كمؤسسة :

ومن خلال هذا العرض الموجز ، نشعر بأن مؤسسة الزواج التي تفسح المجال لنظام الأسرة الواحدة ، هي من المؤسسات التي تؤدي وظيفة إنسانية يجب أن نحافظ عليها ، وأن نكفل لها الامتداد والتركيز ، فنقف أمام الدعوات التي تطلق من هنا وهناك لتدعوَ إلى الثورة على هذا النظام ، بحجة أنه يشتمل على سلبيات كثيرة ، ولكنها لا تحاول النظر إلى إيجابياته ، لتكون القضية المطروحة هي الموازنة بين الإيجابيات والسلبيات ، فيكون الحكم أكثر اتزاناً وأقرب للواقعية والعدالة .

مع سلبيات نظام الأسرة :

إننا نواجه كثيراً من التيارات الحديثة ، فيما نقرأ ، وفيما

نشاهده ، في أوروبا وأميركا وفي غيرهما من البلدان ، التي تحارب الأسرة كنظام ، والزواج كمؤسسة ، على أساس أن الأسرة تخنق حرية الفرد ، رجلاً أو امرأةً ، وتحبسه في نطاق ضيّق لا يستطيع معه أن يمارس حريته في الحياة في اللهو والعبث وفي الانطلاق حيث يريد كما يريد ، وقد يحلو لبعضهم أن يربط القضية بحقوق المرأة وحاجتها إلى تأكيد إنسانيتها على أساس أن نظام الأسرة يحولها إلى إنسانة لا شغل لها إلا الحمل والولادة والرضاع والحضانة مما يقتضيها إهدار طاقاتها الأخرى التي تستطيع من خلالها تقديم العطاء الأكبر للإنسانية .

وقد يجد البعض في نظام الأسرة جوّاً خانقاً ضيّقاً يحبس الأطفال في الإطار المحدود الذي تتحرك فيه عقلية الأبوين ، فيتأثر به ويتجمّد .. وقد يؤدي ذلك إلى الفوضى في التفكير لدى الأمّة عندما تتنوع ذهنية أبنائها وتختلف وتتناقض تبعاً للذهنيات المتنوعة للآباء المختلفين في عقلياتهم وتفكيرهم .

* * *

ويحاول هؤلاء أن يضعوا البديل لنظام الأسرة ، في المحاضن الكبيرة التي تحوّل الأعداد الكبيرة من الأطفال إلى أسرة كبيرة واحدة تشرف عليها مربيات متخصصات بأحدث وسائل التربية والرعاية ، حيث تتوفر لهم الحياة الجماعية الواسعة ، والتربية الموحدة في الوقت الذي توفر للأباء والأمهات الحرية الكاملة في ممارسة حياتهم على حسب ما يشتهون ، وتفجير طاقاتهم المتنوعة

كما يريدون بعيداً عن ضغوط المسؤوليات المترتبة على الأبوة والأمومة من خلال نظام الأسرة .

وقد يضيف بعضهم إلى ذلك .. إننا لا نحتاج إلى إعطاء العلاقات الجنسية صفة الشرعية في إطار الزواج ، لأن مهمة الزواج هي المحافظة عن النوع البشري ، إلى جانب الاستجابة للحاجة الغريزية .. ونحن لا نشعر بالضرورة إلى اخضاع ذلك للقوانين التي تجعل للعلاقة حدودها الشرعية القانونية .. وقد يطرح بعضهم موضوع «أنابيب الاختبار» كموضوع جديد يلغي متاعب الحمل والولادة .. ويجعل قضية امتداد البشرية في الوجود خاضعة للمزارع المستقبلية للإنسان تماماً كمزارع الدجاج وغيره .

* * *

الإيجابيات تتحدى السلبيات :

ربما يفكر بعض الناس على هذا الشكل ، ولكن هذا التفكير لا يعطي لعلاقة الرجل والمرأة ، أيّ بعد روحي ، بل يعتبرها قضية مادية ككل القضايا المادية الجامدة الجافة الخاضعة لنظام الآلات والأرقام .. حتى قضية الأطفال ليست إلا كقضية وجود أو نشأة أيّ نوع من الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهو شيء كالأشياء التي تخضع للقوالب الجاهزة الجامدة ..

ولكننا لا نستطيع السير معهم في هذا المجال ، لأن هذا الاتجاه قد يحقق بعضاً من الإيجابيات ، ولكنه يخلّف الكثير الكثير

من السلبيات التي تتحدى النمو الطبيعي للإنسان في طفولته وشبابه وحياته كلها .. ونحن لا نريد الدخول في جدل فلسفي عميق أو عقيم ، بل كل ما نريد أن نقدمه أمام هذه الفكرة ، في هذه الوقفة الخاطفة هو التجربة المريرة التي عاشها الإنسان من خلال انحلال الأسرة وتفككها في حياة الإسان المعاصر في أوروبا وأميركا ، على أساسٍ من مفاهيم الحرية اللامسؤولة وعلى أساسٍ من العقلية المادية الجامدة ..

فإننا نشاهد أمامنا الواقع الذي ابتعد فيه الإنسان تدريجياً عن جو الأسرة .. في أجواء الفتيات ، وفي أجواء الشباب من الأبناء والبنات .. وهكذا في جيل الأباء والأمهات .. فقد تحولت الأسرة عندهم إلى سجن كبير ، وأصبح البيت الذي يجتمعون فيه يمثل فندقاً صغيراً يتجمع فيه خليط متنوع من الناس لا يشعرون فيه بأنه رابطة تربطهم ببعضهم ، فلكلٍ منهم حريته حسب هواه ، ولكلٍ منهم أوضاعه وعلاقاته حسب رغبته ، ولا مجال للحنان والعاطفة في حياتهم من قريب أو بعيد ..

.. وهكذا وجدنا لدى هذا الجيل جفافاً في الإنسانية ، وشعوراً بالضياع ... وإحساساً عميقاً بالعبث في ممارسة الإنسان للحياة .. وهكذا بدأت « الصرعات » التي تجتاح أوروبا وأميركا وغيرهما من خلال الشعور العميق بالجفاف الروحي والجدب العاطفي ، مما يغريه بالهروب من واقعه ، والتمرد على طريقة الحياة فيه ، فقد تحولت علاقته بأبويه وبالناس كافة إلى أيّ علاقة تخضع

للأرقام الحسابية في كل مجالاتها ، ولا تخضع لأية دوافع روحية يعطيه منها الآخرون ما يملأ روحه وحياته وما يزيد في نموه العاطفي والنفسي .

إننا نشاهد في هذه التجارب البسيطة التي لم تقتلع ـ حتى الآن ـ الأسرة كنظام وإنما خففت من أجوائها فأبعدت الأسرة عن أجواءها الطبيعية .. إننا نشاهد الإنسان ، وهو يعيش الجفاف والقسوة ويتحول إلى إنسان جائع ، لا للمال ، ولا للشهوات بل هو جائع للحنان وللعاطفة ، تماماً كالطفل الذي يعيش هذا الجوع في بدايات أيامه . إن الإنسان يتحول الآن إلى طفل كبير يعيش الحاجة إلى العطف والحنان اللتين فقدهما في طفولته عندما ابتعدت الأسرة عن معانيها الروحية ، ولهذا فإننا نعيش الآن في زمن الأطفال الكبار الذين يبحثون في طفولتهم الجديدة عن الروح التي تجعل من طفولتهم شيئاً حيّاً يبني لهم روحهم كما يبني لهم ماديتهم ..

أما حديث الآفاق الضيقة ، والحريات الإنسانية وغير ذلك مما أثاره هؤلاء ، فإنه لا يزيد عن إثارة بعض السلبيات أمام الفكرة ، ولكنها سلبيات لا تثبت أمام الإيجابيات الكثيرة ، ولا تثبت أمام النقد .. لأن الحياة كفيلة بتوسعة الآفاق الضيقة التي قد يعيشها الطفل من خلال أبويه ، كما أن التربية المتقدمة الموحدة ، قد توفر لأبناء الأمة تفكيراً موحداً من خلال المناهج الموحدة .. بل ربما نجد في تنوّع ذهنيّة الآباء واختلافها خصباً

جديداً في تنويع الذهنيات وتحريكها لئلا تتجمد عند أفق واحد .. فيعطي كل أسلوب منها معنى جديداً للحياة عندما تبدأ الطاقات بالتفجر والانفتاح .

أما حديث حقوق المرأة وحرية الأبوين ، فقد لا نجد فيه ما يغري بالتفكير والمناقشة لأن هذا النظام لا يجمِّد الحرِّيات بل يضعها في إطار المسؤولية ، ولا يهدر الحقوق وإنما ينظِّم لها مسارها وحركتها في حياة الإنسان .

ومهما انطلقت السلبيات هنا وهناك في هذا النظام ، فإننا نرى أن السلبيات التي يفرزها النظام البديل تهدد حيوية الحياة في أعماق الإنسان وتهدم له روحيته ، وتجفف في داخله ينابيع الرحمة والحنان .

ولهذا فإننا نصرّ ونؤكد على الاحتفاظ بالأسرة كنظام ، وبالزواج كمؤسسة لأن الإنسانية لم تجد البديل الأفضل الذي يمكن أن تسير عليه في الاتجاه الآخر .. وقد لا نجد مانعاً من التوفر على دراسة سلبيات هذا النظام ومحاولة تقليلها وتخفيفها من خلال العمل على سلامة التطبيق ..

هل الزواج شركة ؟

قد نجد في بعض الكلمات التعبير عن الزواج بأنه شركة بين الزوجين .. فهل هذا صحيح ؟

ربما يقصد هؤلاء بالكلمة المعنى الذي يوحي بعدم الحرية

للطرفين في ممارساتهما الحياتية كما كانا قبل الزواج .. تماماً كالشريكين في المال اللذين يفقدان الحرية المطلقة التي كانا يملكانها قبل الشركة .. فقد كان كل واحد منهما حراً في ماله يتصرف به كما يشاء ولكنه فقد هذه الحرية ـ بعد الشركة ـ فأصبح من واجبه أن يستشير شريكه فلا يتصرف بما لا يرضيه أو بما لا يتفق مع مصلحته .. وهكذا نستطيع اعتبار الزواج شركة حياة .. تربط بين حياتين من خلال ارتباط الإرادتين بتوحيدهما فلا حرية لأي منهما خارج نطاق الحقوق الزوجية المفروضة ..

وعلى ضوء ذلك فالتعبير صحيح .. فإن هذه العلاقة تفرض على كل منهما التزامات جديدة إزاء الآخر مما لا يملك معه أمر الهروب منه أو الانفلات من قيوده ..

أما إذا قصد هؤلاء المعنى المادي للشركة التي تجعل من الزواج مؤسسة مادية تخضع للمصالح المتبادلة ، وترتكز على الوظائف المادية في هذا المجال على أساس القانون التبادلي التجاري .. فهذا ما لا نوافق عليه ..

والسرّ في ذلك أن العلاقة الزوجية ارتكزت في المفهوم الإسلامي القرآني على أساس المودة والرحمة التي تمتد في حياة كل منهما امتداداً روحياً يؤكد الجانب الإنساني في حياتهما المشتركة ، ويوحّد الحياتين في شعور واحد عميق حتى ليتحول كل منهما إلى لباس للآخر « هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ » .

وليس معنى ذلك أن لا يكون للجوانب المادية أثر في هذه العلاقة بحيث تتحدد فيها الحقوق والواجبات .. فهناك المهر وهناك النفقة ، والعلاقة الجنسية وغير ذلك من شؤون الحياة المعيشية .. ولكن مثل هذه الأمور لا تتجمد عند حدود الجوانب القانونية الإلزامية بل تأخذ لنفسها الامتداد في العطاء حتى يمارسها كل من الطرفين بدون حساب بعيداً عن كل التزامات مؤكدة .. ولكنه يفسح المجال لها لكي تنطلق بعيداً في مجال العطاء العفوي الكريم .

وعلى ضوء هذا نجد أن في نظام الحياة الزوجية الإسلامي نوعين من الالتزامات ، فهناك التزامات قانونية إلزامية ينفذها الشرع بقوّة القانون ، وهناك التزامات أخلاقية تنبع من الإحساس العميق بالعلاقة الروحية التي تربط الزوجين ببعضهما .. من دون أن يكون هناك أيُّ ملزم قانوني يلزمها بالعمل به .. وهذه هي التي جعلها الإسلام مساحاتٍ وفراغاتٍ يعطي فيها لكلٍّ من الزوجين المجال في تحقيق إنسانيته في داخل الحياة الزوجية من خلال العطاء بلا مقابل . مثال ذلك .. إننا حينما نواجه الحقوق الزوجية بين الرجل والمرأة نجد أن الإسلام لا يحمّل المرأة في داخل البيت الزوجي ـ من وجهة نظر قانونية ـ أية مسؤولية من مسؤوليات خدمة البيت ، لأنه لا يريد لها أن تدخله بإحساس الخادمة التي تعيش انسحاق الذات وقهر الإرادة ، في خدمتها لزوجها ولأولادها بل أراد لها أن تدخل الحياة الزوجية من الباب

الواسع الذي تشعر فيه بأنها إنسانة تعيش إنسانيتها في حرية الإرادة في داخل البيت ، فلم يكلفها بأيّ شيء مما تعارفنا على تكليفها به .. ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ أراد لها من ناحية روحية وأخلاقية ، على أساس طبيعة العطاء الإنساني ، أن تقوم برعاية زوجها وأولادها بلا مقابل ـ وإن كان لها الحق في طلب العوض المادي ـ واعتبر لها ذلك جهاداً فقد ورد في الحديث « إن جهاد المرأة حسن التبعُّل » أي أن تكون زوجة صالحة لزوجها فتقدم له ما تستطيع تقديمه بكل محبة وإخلاص ..

وهكذا يمكن أن نجد المثل في حقوق المرأة على الرجل فقد لا يجب عليه إلا أن ينفق عليها النفقة المتعارفة ، فليس ملزماً بكل ما تتمنى أن تجده في حياتها فيما تعارفنا على بذله لها .. ومع ذلك فقد أراد الإسلام للرجل أن يوسع على عياله .. فقد ورد عن الإمام علي الرضا (ع) «إن عيال الرجل أسراؤه فمن أنعم الله عليه بنعمة فليوسع على أسراءه فإن لم يفعل أوشك أن تزول النعمة ». وسرّ ذلك هو أنه يريد للرجل أن يعيش العطاء في هذا المجال وأن يعطي من نفسه ما لا يجب عليه ..

وهكذا يريد الإسلام لكلا الزوجين أن يعيشا روح العطاء الإنساني ، بالإضافة إلى التقيد بالحدود الإلزامية التي أرادها الله ، من الزوج ، وهي المعاشرة بالمعروف والإنفاق على الزوجة ، ومن الزوجة ، أن لا تمنعه من نفسها في كل حال إلا في حالات العذر الشرعي ، وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه في غير الحالات

الضرورية والحرجيّة ، وفيما لا يتنافى مع حقوقه الزوجية الخاصة ..

* * *

مع المشاكل العملية في واقع الزواج المعاصر :

وفي ختام الحديث لا بد لنا من التوقف أمام بعض الأوضاع والعادات والمشاكل التي تحول دون المحافظة على طبيعة ما يريده الشرع الإسلامي لهذا النظام من سهولة وسماحة وواقعية وانسجام . وتعمل على تعقيد الزواج وتأخيره وتفسح المجال لكثير من السلبيات في هذا المجال ..

مشكلة غلاء المهور :

١ ـ غلاء المهور .. إننا نلاحظ في تقاليدنا الاجتماعية ، أن المهر يرتفع كلما ارتفع مستوى الحياة الإجتماعية والاقتصادية للزوجين على أساس ما يمثله المهر من قيمة اجتماعية للمرأة ، فالمرأة التي تحصل على مهرٍ كبير تعتبر ـ في نظر مجتمعها ـ امرأةً ذات وزن خطير ومستوى رفيع ، وقد أدى هذا إلى تعقيد الحياة الزوجية في كثير من المجتمعات وتأخير سن الزواج لدى الرجل والمرأة لأن الكثيرين من الشباب ينطلقون في حياتهم من موقع مادي أو اجتماعي عادي ، فيشعرون بالعجز عن مواجهة هذا المستوى المرتفع من المهور ، لا سيما في مثل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة ، فيضطرون إلى تأخير الزواج ، وربما يدفعهم ذلك ، في مثل أجواء الانحراف الأخلاقي ، إلى الانحراف في أكثر من جانب ، وفي أكثر من وسيلة ..

إننا نريد مواجهة هذا الواقع من ناحية موضوعية واقعية ومن ناحية شرعية إسلامية .. وسنجده في نهاية المطاف واقعاً لا يشجع صاحبه على الامتداد فيه ..

أما من الناحية الموضوعية .. فقد نتساءل : لماذا المهر .. إن المهر في الإسلام يمثل رمزاً من رموز الاحترام والمحبة من الرجل للمرأة ولهذا عبر القرآن عنه بكلمة «النِحلة» التي تمثل العطية بلا مقابل ، كما أشرنا إليه آنفاً ..

لماذا المهر ؟ هل هو عنصر تأمين للمرأة في حياتها ، أو عنصر ضمان لامتداد الحياة الزوجية باعتباره يشكل عنصر ثقة للمرأة في امتناع الرجل عن طلاقها إذا كان المهر ثقيلاً .. هل هذا هو ما يمثله المهر في عقد الزواج ؟

ربما يخيّل لبعض الناس ، أن المهر كلما كان كبيراً كلما اضطر الرجل إلى الابقاء على علاقة الزوجية مهما كانت الظروف .. ولكن هذه الفكرة خاطئة لأن الزوج لا يخلو من أن يكون أحد شخصين ، فإما أن يكون ممن يخاف الله ويعيش الشعور بالمسؤولية ، وإما أن يكون ممن لا يخاف الله ولا يشعر بالمسؤولية ، فإذا كان من الصنف الأول ، فلا بد له من أن يهيّيء لزوجته الحياة الطيبة من ناحية المعاشرة والإنفاق من دون حاجة إلى أيّة ضغوط مالية أو غير مالية لأن المؤمن يقف عند حدود الله من موقع إيمانه ، لا من موقع خارجي ، وهذا هو الضمان الأفضل لسلامة الزواج واستمراره . وإن كان من الصنف الثاني ، فلا يصلح المهر

لأن يكون ضماناً أكيداً ، لأن أخلاقه المنحرفة قد تدفعه إلى بعض الممارسات اللاأخلاقية تجاه زوجته بالمستوى الذي يدعوها إلى أن تبذل له من مالها الخاص زيادةً على مهرها حتى تتخلص من ظلمه وقسوته .

وقد يعتبره البعض عوضاً عما تبذله المرأة من نفسها للرجل ، أو ثمناً لها .. وربما يوحي بهذا أسلوب المفاوضات والمزايدات والمناقصات الذي جرى عليه الناس عند عقد الزواج ، كأن القضية قضية سلعة معروضة في المزاد العلني أو السريّ ولكن بطريقة شرعية أو عصريّة ..

ولكن هذا أشدُّ خطأً لأننا ذكرنا أن الإسلام اعتبر المهر نحلة لا عوضاً. وقد يوحي بهذا طريقة التعبير في عقد الزواج ، عندما يبدأ الزواج بقول المرأة زوجتك نفسي على مهر قدره كذا ، «بدلاً» من كلمة بـ « مهر » التي تفيد معنى العوضية .. وإن كان جائزة .. ولكن العوضية بالمعنى الشرعي ليست واردة على كل حال .

وعلى ضوء هذا نجد أن اعتبار كثرة المهر قيمةً للمرأة تزيد في ميزانها الإجتماعي ليس صحيحاً ، بل الأمر بالعكس فإن ذلك يهدر كرامتها ويحولها إلى بضاعة وسلعة .. ولذا فإن من الأولىٰ للمرأة أن ترتفع بكرامتها عن هذا المستوىٰ باعتبار أن نفس المؤمن لا تقدر بأيّ ثمن مهما كبر وارتفع وغلا ..

وأمّا من الناحية الإسلامية .. فقد ورد في الحديث عن رسول الله «ص» : «إن شؤم المرأة غلاء مهرها ..» وقد جاءت الأحاديث

عن أئمة أهل البيت «ع» – فيما رواه بعضهم – في حديث الإمام الصادق ، يقول : «زوّج رسول الله فاطمة على درع حطميّة تساوي ثلاثين درهماً ..»

وقد جاء عن الإمام محمد الباقر « ع » قال : «جاءت امرأة إلى النبي فقالت : زوِّجْني ، فقال رسول الله من لهذه فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله، زوجنيها ، فقال : ما تعطيها، فقال : ما لي شيء قال : لا ، فأعادت ، فأعاد رسول الله الكلام فلم يقم أحدٌ غير الرجل ، ثم أعادت ، فقال رسول الله في المرة الثالثة : أتحسن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، قال : قد زوَّجتكها على ما تحسن من القرآن فعلّمها إياه ..»

وهكذا نجد أن المهر لا يمثل قيمة إسلامية للمرأة بل قد تمثل كثرته ضد القيمة كما نفهمه من اعتبار ذلك شؤماً .. وقد نلاحظ في بعض الأحاديث ، اعتبار كثرة المهر سبباً من أسباب العداوة فقد روى عن الإمام علي « ع » قال : لا تغالوا بمهور النساء فتكتسبوا العداوة ..

ولعل سبب ذلك هو ما يحدثه غلاء المهر من إرهاق مادي للزوج فيخلق لديه عقدة ضد الزوجة ، وقد يتعاظم هذا الشعور فيتحول إلى إحساس دائم بثقل الحياة الزوجية عليه من خلال المهر الكبير الذي يلزمه دفعه مما يثقل عليه أمر حياته .. وبكلمة واحدة : إن غلاء المهر لا يشكل أيّ عنصر من عناصر نجاح الحياة الزوجية ، بل ربما يحدث العكس من ذلك فيكون وسيلة

من وسائل الفشل والإرهاق، فلذا ينبغي للعاملين في الحقل الاجتماعي الأخلاقي أن يعملوا على محاربة هذه العادة السيئة ليسهلوا للشباب طريق الزواج ليحصلوا على العصمة لنفوسهم عن الحرام من أقرب طريق .

* * *

مشكلة التعقيد في البيت الزوجي :

٢ ـ التعقيد في شروط البيت الزوجي .. لقد أصبحت الشروط في تحضير البيت الزوجي ، لإتمام عملية الزواج معقّدة جداً ، بالمستوى الذي يصعب معه إتمام الزواج .. فلا بد لمن يريد الزواج في هذه الأيام أن يفتح بيتاً يشتمل على أكثر من غرفة وأكثر من نوع من أنواع الأثاث .. وهذا هو أحد الأسباب الاجتماعية في تأخير الزواج لدى الشباب والفتيات في كثير من أوساط البلاد الإسلامية .

ونحن نتساءل عن السبب في هذا التقليد ، فاذا كانت العلاقة الزوجية تنطلق من موقع الحاجة الذاتية لكلٍّ من الطرفين فلماذا نضع الحواجز أمامها ونتركها عرضة للانحراف امام هذه الشروط المادية المعقدّة .

اما اذا كانت العلاقة الزوجية خاضعة للحاجة إلى الاستقرار في بيت يؤمّن لهما الدخول في الحياة الاجتماعية المستقرّة .. فلماذا يجب ان يكون هذا البيت بالمستوى الكبير الذي يرهق ميزانيتها منذ البداية .. فمن الممكن ، من زاوية إسلامية أن يبدئا الحياة

الزوجية من نقطة الصفر ويتعاونا في بناء العش الزوجي ولعل أفضل مثل عندنا في القدوة الاسلامية هو مَثَلُ العلاقة الزوجية بين سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وبين سيدنا الامام علي عليه السلام .. فقد ورد في الحديث .. أنهما كانا يحدثان رسول الله عن حالتهما ومتاعبهما انهما كانا يملكان جلد كبش ينامان عليه في الليل ويعلفان عليه ناضحهما (بعيرهما) في النهار ، ولم يكونا مالكين إلا للشيء الزهيد جداً من متطلبات الحياة الزوجية .. فلم يمنعهما ذلك من أن يبدئا حياة زوجية ناجحة .

وقد تقدم أمامنا — في الفترة الأولى — من حديث الرجل الذي زوجه رسول الله ، دون أن يملك شيئاً من حطام الدنيا سوى ثقافته القرآنية التي اعتبرها النبي مهراً إسلامياً للزوجة ..

وقد يقول قائل : ان المجتمع كان فقيراً آنذاك .. فقد كان من المجتمعات البدائية التي لاتملك قدرة اقتصادية معقدة ، كما هو الحال الآن ..

ولكن القضية ليست كذلك فقد كان مجتمع المدينة الذي يضم اليهود والانصار من اكثر المجتمعات غنى في تلك المنطقة .. فقد كانت المدينة تتمتع بثروة زراعية جيدة إلى جانب المركز التجاري ..

اننا نشعر بضغط الواقع الاجتماعي والاقتصادي في حياة الشباب والفتيات سواءً على مقاعد الدراسة ، او في اجواء العمل ،

او في أيّ مجال آخر من مجالات الحياة ونعتقد بضرورة العمل على أن نتخطى هذه الضغوط التي توجب تأخير الزواج فنواجه المشكلة مواجهةً واقعية تعتمد على الدراسة العميقة الشاملة للواقع وتعمل على تحطيم هذه الحواجز لنفسح المجال لزيجات بسيطة تبدأ من امكانات عادية ، أن لم تبدأ من نقطة الصفر .. وبهذا يمكننا أن نشجع زواج الطلاب والطالبات ، في مقاعد الدراسة لحماية انفسهم من الانحراف على أساس البيت الطالبي الذي يمثل غرفة واحدة بسيطة في طبيعتها وفي أثاثها . واذا كان البعض يثير قضية الاولاد ومسؤولية تربيتهم والقيام بالانفاق عليهم مما لا يتناسب مع امكانية الزوجين في فترة الدراسة .. فان لدينا ، في معالجة ذلك ، مجالاً كبيراً للاجتهادات الاسلامية المعاصرة التي تبيح تنظيم النسل بالوسائل المشروعة لمنع الحمل بشكل أو بآخر مما يمكن أن يفسح المجال لبداية الزواج دون موانع .

ان علينا اذا أردنا التخلص من ضغوط الواقع الصعبة أن أن نواجه مشاكلنا بصراحة ، ولا نهرب منها وندفن رؤوسنا في الرمال .

مشكلة المستوى الطبقي

٣ ـــ ملاحظة المستوى الاجتماعي والاقتصادي في الكفاءة .

وهذه هي احدى الموانع المعقدة التي تحول دون اتمام الزواج في كثير من المجالات فقد يطلب بعض الناس ممن يملكون كل مقاييس الكفاءة الاخلاقية ، انسانة أخرى تملك الى جانب

كفاءتها الأخلاقية ، مستوى اجتماعياً أو اقتصادياً لا يملكه هذا الانسان ، او تكون القضية بالعكس ، فيقف المركز الاجتماعي والمستوى الاقتصادي حائلاً عن اتمام الزواج .

الاسلام يرفض الطبقية في الزواج :

أما موقف الاسلام من هذا فهو الرفض المطلق ، انطلاقاً من المخطط الذي اعتبره الاسلام أساساً للحياة الانسانية العامة في علاقات الافراد ببعضهم .. وهو تذويب الفروق الطبقية والعرقية في اطار العلاقة الانسانية المرتكزة على الدين الصحيح والخلق السليم.. لأن ذلك هو الاساس في نجاح أية علاقة من الناحية العملية لأن الدين يمنع الانسان من الاضرار بأخيه الانسان ويدفعه الى الالتزام الواعي بما يلتزمه من عقود وعهود تطبيقاً للشريعة الاسلامية في الوفاء بالعقد والعهد على هدى الآيتين الكريمتين.. « أوفوا بالعقود » « و أوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » وبذلك يعيش الشعور بالمسؤولية أمام الاهواء الفاسدة أمّا الخلق السليم فأنه يبعث الانسان على التسامح والعفو والمغفرة ، ومواجهة المشاكل في العلاقات ، بالروح المنفتحة التي تبحث عن الأحسن في الكلمة والأسلوب والحركة مما يهيىء الجو الصالح للحل الأفضل لأي مشكلة معقدة .. لأن تعقيد الكثير من المشاكل ينطلق من فقدان الروحية التي تساهم في الوصول إلى الحل .

وهذا هو المقياس الذي اطلقه النبي (ص) في حديثه الشريف

المأثور : «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» .

وقد نلاحظ في هذا الحديث التحذير الصارخ للمسلمين في حالة الانحراف عن هذا القياس بالوقوع في الفتنة والفساد الكبير الذي يشمل الحياة كلها .. وهذا هو ما نواجهه في التقاليد والعادات المنحرفة التي اعتبرت النسب والمركز والمال أساساً للقبول والرفض. مما ساهم في بقاء الروح الطبقية والعنصرية في المجتمع ، وعطّل بالتالي الخطة الأسلامية الموضوعة في اتجاه توحيد الانسانية على أساس القيم والمبادىء المتمثلة في الخلق والدين ، بعيداً عن كل اعتبار آخر ..

النبي (ص) يزوج أبنة عمه للمقداد :

ولعل الاسلوب العملي الأمثل هو أسلوب التزواج بين الطبقات المختلفة والعناصر المتنوعة ، والانساب المتفاوتة .. فأن ذلك يحطم كل المشاعر المضادة التي تخضع للاعتبارات الطبقية والعنصرية والنسبية .. وهذا هو ما حاوله النبي محمد (ص) في تخطيطه الشامل للزواج . وفي تطبيقه العملي في الزيجات التي ارتبط بها ، أو التي سعى فيها في تزويج بعض قريباته لأناس أقل مكانة منهن . فقد ورد في الحديث عن رسول الله « ص » — فيما رواه عنه الامام جعفر الصادق «ع» قال : «إن رسول الله «ص» زوج ضبيعة بنت الزبير بن عبد المطلب من مقداد بن الاسود ، فتكلمت في

ذلك بنو هاشم . فقال رسول الله « ص » : انما أردت أن تتضع المناكح .. » وفي لفظ آخر في هذا الحديث .. .. قال الامام الصادق (ع) : «إنما زوّجه لتتضع المناكح وليتأسوا برسول الله (ص) ولتعلموا أن أكرمكم عند الله أتقاكم .. « وكان الزبير اخا عبد الله وابي طالب لابيهما وأمهما .. » وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٤٥ » .

قصة زواج جويبر من الذلفاء :

وتتحدث السنة النبوية عن بعض الحالات التي كان يضغط فيهاالنبي (ص) على بعض الاشراف ليزوجوا البسطاء من أجل أجل التأكيد على المبدأ عملياً .

وفي حديث الامام محمد الباقر « ع » إن رجلا كان من أهل اليمامة يقال له جويبر اتى رسول الله (ص) منتجعاً للاسلام فأسلم وحسن إسلامه وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً وكان من قباح السودان فضّمه رسول الله (ص) لحال غربته وعراه وكان يجري عليه طعاماً صاعاً من تمر بالصاع الاول وكساه شملتين وأمره أن يلزم المسجد ويرقد فيه بالليل فمكث بذلك ما شاء الله حتى كثر الغرباء ممن يدخل في الاسلام من اهل الحاجة بالمدينة وضاق بهم المسجد فأوحى الله الى نبيه أن طهر مسجدك وأخرج من المسجد من يرقد فيه بالليل ومُر بسد أبواب من كان له في مسجدك باب الا باب علي ومسكن فاطمة ولا يمرّن فيه جنب ولا يرقد فيه غريب قال : فأمر رسول الله بسدّ أبوابهم إلاّ باب

علي وأقرّ مسكن فاطمة على حاله ، قال : ثم ان رسول الله أمر أن يتخذ للمسلمين سقيفة فعملت لهم وهي الصفة ثم أمر الغرباء والمساكين أن يظلوا فيهانهارهم وليلهم فنزلوها واجتمعوا فيها فكان رسول الله (ص) يتعاهدهم بالبر والتمر والشعير والزبيب اذا كان عنده ، وكان المسلمون يتعاهدونهم ويرقون عليهم لرقّة رسول الله (ص) ويصرفون صدقاتهم إليهم ، وإن رسول الله (ص) نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقّة عليه فقال له : « يا جويبر لو تزوجت أمرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دينك وأخرتك فقال له جويبر : يا رسول الله بأبي أنت وأمي من يرغب فيَّ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال فأية امرأة ترغب فيَّ فقال له رسول الله « ص » : يا جويبر أن الله قد وضع بالاسلام من كان في الجاهلية شريفاً وشرّف بالاسلام من كان في الجاهلية وضيعاً وأعز بالاسلام من كان في الجاهلية ذليلاً وأذهب بالاسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم وان آدم خلقه الله من طين وإن أحبّ الناس الى الله عز وجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم وما أعلم يا جويبر لاحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلا لمن كان أتقى لله منك وأطوع ، ثم قال له : انطلق يا جويبر الى زياد بن لبيد من أشرف بني بياضة حسباً فيهم فقل له : إني رسول رسول الله إليك وهو يقول لك : زوّج جويبراً ابنتك الذلفاء قال : فانطلق جويبر برسالة رسول

الله إلى زياد بن لبيد وهو في منزله وجماعة من قومه عنده فاستأذن ، فاعلم فأذن له فدخل وسلّم عليه ثم قال : يا زياد بن لبيد إني رسول رسول الله إليك في حاجة لي فأبوح بها أم أُسرّها إليك ؟ فقال له زياد بل ُبح بها فان ذلك شرف لي وفخر فقال له جويبر ان رسول الله يقول لك : زوج جويبراً ابنتك الذلفاء ، فقال له زياد : أرسول الله أرسلك إلي بهذا ؟ فقال له : نعم ما كنت لأكذب على رسول الله فقال له زياد : إنا لا نزوج فتياتنا إلا أكفاءنا من الأنصار فانصرف جويبر وهو يقول : والله ما بهذا انزل القرآن ولالمهذا ظهرت نبوّة محمد « ص » فسمعت مقالته الذلفاء بنت زياد في خدرها فأرسلت الى أبيها أُدخل إليّ فدخل إليها فقالت له : ما هذا الكلام الذي سمعته منك تحاور به جويبر ؟ فقال لها : ذكر لي أن رسول الله أرسله وقال : يقول لك رسول الله « ص » زوج جويبراً ابنتك الذلفاء فقالت له والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله « ص » بحضرته فابعث الآن رسولاً يرد عليك جويبراً فبعث زياد رسولاً فلحق جويبراً فقال له زياد . يا جويبر مرحباً بك اطمئن حتى أعود إليك ثم انطلق زياد الى رسول الله « ص » فقال له بأبي أنت وأمي إن جويبراً أتاني برسالتك وقال : أن رسول الله يقول لك : زوج جويبراً من ابنتك الذلفاء ، فلم ألن له بالقول ورأيت لقاءك ونحن لا نتزوّج إلا أكفاءنا من الأنصار فقال له رسول الله «ص» يا زياد : جويبر مؤمن والمؤمن كفؤ للمؤمنة والمسلم كفؤ للمسلمة فزوّجه

يا زياد ولا ترغب عنه . قال : فرجع زياد الى منزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله « ص » فقالت له : إنك ان عصيت رسول الله كفرت فزوِّج جويبراً فخرج زياد فأخذ بيد جويبر ثم أخرجه الى قومه فزوجه على سنّة الله وسنّة رسوله « ص » وضمن صداقه ، قال : فجهزها زياد وهيؤوها ، ثم أرسلوا الى جويبر فقالوا له : ألك منزل فنسوقها اليك فقال : والله ما لي منزل . قال : فهيؤوها له وهيَّأوا لها منزلاً وهيَّأوا فيه فراشاً ومتاعاً وكسوا جويبراً ثوبين وأدخلت الذلفاء في بيتها وأدخل جويبر عليها معتما فلما رأها نظر الى بيت ومتاع وريح طيبة قام الى زاوية البيت فلم يزل تالياً للقرآن وراكعاً وساجداً حتى مطلع الفجر فلما سمع النداء خرج وخرجت زوجته الى الصلاة فتوضأت وصلت الصبح ، فسُئلت هل مسّك ؟ فقالت : ما زال تالياً للقرآن وراكعاً وساجداً حتى سمع النداء فخرج فلما كانت الليلة الثانية فعل مثل ذلك وأخفوا ذلك من زياد فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأخبر بدلك أبوها فأنطلق إلى رسول الله فقال له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله أمرتني بتزويج جويبر ولا والله ما كان من مناكحنا ولكن طاعتك أوجبت عليّ تزويجه ، فقال له النبي « ص » فما الذي أنكرتم منه ؟ قال : إنـا هيّأنا له بيتاً ومتاعاً وإدخلت ابنتي البيت وأدخل معها معتماً فما كلّمها ولا نظر إليها ولا دنا منها بل قام إلى زاوية من البيت فلم يزل تالياً للقرآن وراكعاً وساجداً حتى سمع النداء ، فخرج تم فعل مثل ذلك في الليلة

الثانية ومثل ذلك في الليلة الثالثة ولم يدن منها ولم يكلمها الى أن جئتك وما نراه يريد النساء فانظر في أمرنا فانصرف زياد وبعث رسول الله « ص » إلى جويبر فقال له : أما تقرب النساء ؟ فقال له جويبر .. بلى يا رسول الله .. فقال له رسول الله : قد خبرت بخلاف ما وصفت به نفسك قد ذكر لي أنهم هيّأوا لك بيتاً وفراشاً ومتاعاً وفتاةً حسناء عطرة وأتيت معتماً فلم تنظر إليها ولم تكلمها ولم تدن منها فما دهاك إذن ؟ فقال له جويبر : يا رسول الله دخلت بيتاً واسعاً ورأيت فراشاً ومتاعاً وفتاةً حسناء عطرة وذكرت حالي التي كنت عليها وغربتي وحاجتي ووضيعتي وكسوتي مع الغرباء والمساكين فأحببت إذ أولاني الله ذلك أن أشكره على ما أعطاني وأتقرب إليه بحقيقة الشكر فنهضت إلى جانب البيت فلم أزل في صلاتي تالياً للقرآن وراكعاً وساجداً اشكر الله حتى سمعت النداء فخرجت فلما أصبحت رأيت أن اصوم اليوم ففعلت ذلك ثلاثة أيام بلياليها ورأيت ذلك في جنب ما أعطاني الله يسيراً ولكني سأرضيها وأرضيهم الليلة إن شاء الله فأرسل رسول الله الى زياد فأتاه فأعلمه ما قال جويبر فطابت أنفسهم قال : ووفى لها جويبر بما قال ..

وقد احببنا أن ننقل هذا الحديث الطويل ـ في هذه المحاضرةـ لأنه يمثل وتيقة حيّة في التأكيد على الخط الاسلامي في الكفاءة في الزواج من ناحيته النظرية والتطبيق كما أنه ينقلنا إلى تلك الأجواء الرائعة التي كان المسلمون فيها يخضعون لكلمة الرسول دون أيّ

توقف حتى فيما ترفضه عاداتهم وتقاليدهم .. سواء في ذلك الرجال والنساء مما يدلنا على مدى ما يتمتعون به من وعي ورحابة افق وصدق ايمان .. وهذا ما يتجسد في هذه الفتاة المؤمنة التي اثارها رفض ابيها لهذا المؤمن الفقير الذي يعتبر رفضاً لكلمة رسول الله الذي يعادل الكفر عندها فوقفت في وجه أبيها حتى أجبرته على أن ينفذ كلمة رسول الله « ص » وذلك تطبيقاً لقوله تعالى : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ... »

ثم هذا النموذج الرائع للانسان الفقير الذي واجه الموقف بروح الاسلام فلم يضعف امام رفض طلبه بحجة اختلافه مع العادات والتقاليد ، بل أعلن احتجاجه على الانحراف عن خط الإسلام ممن يعتبرون أنفسهم مسلمين .. بعيداً عن اعتبار الموقف بشخصه بالذات او غير مرتبط به ... ثم لم تبطره النعمة عندما اقبلت إليه ولم يطغه الموقع الجديد الذي انتقل إليه في الوسط الاجتماعي .. بل تواضع لله شكراً لنعمته .. وتلك هي النماذج الصادقة في ايمانها وفي مواقفها ..

* * *

الإمام زين العابدين يتزوج جاريته .. وعبد الملك يعترض ..

وهناك قصة أخرى حدثت للامام زين العابدين علي بن الحسين « ع » تؤكد على هذا الخط من خلال الممارسة العملية الواعية .

فقد روى الكليني في كتابه الكافي ، بسنده عن يزيد بن حاتم

قال : كان لعبد الملك بن مروان عين بالمدينة يكتب إليه باخبار ما يحدث فيها وان علي بن الحسين (ع) أعتق جارية ثم تزوجها فكتب العين الى عبد الملك ، فكتب عبد الملك الى علي بن الحسين أما بعد فقد بلغني تزويجك مولاتك وقد علمت أنه كان في قريش من تمجّد به في الصبر وتستنجبه في الولد فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك أبقيت والسلام .

فكتب إليه علي بن الحسين (ع) : أمّا بعد فقد بلغني كتابك تعنّفني بتزويجي مولاتي وتزعم أنه كان في نساء قريش من أتمجّد به في الصبر وأستنجبه في الولد وأنه ليس فوق رسول الله مرتقى في مجد ولا مستزاد في كرم وانما كانت ملك يميني خرجت مني إرادة الله بأمر التمست به ثوابه ثم ارتجعتها على سنته ومن كان زكياً في دين الله فليس يخلّ به شيء من أمره وقد رفع الله بالاسلام الخسيسة وتمّم به النقيضة وأذهب اللؤم فلا لؤم على امرىء مسلم انما اللؤم لؤم الجاهلية والسلام .

فلما قرأ الكتاب رمى به الى ابنه سليمان فقرأه فقال : يا امير المؤمنين لشدَّ ما فخر عليك علي بن الحسين «ع» فقال : يابنيّ لا تقل ذلك فانها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر إنّ علي بن الحسين يا بنيّ يرتفع من حيث يتضع الناس .
«الكافي ج ٥ — ص ٣٤٥»

انه الخط الانساني الذي لم تبلغ الانسانية مداه حتى الآن .. فهو الذي يقول لك : انك تساوي — في حساب انسانية الاسلام

خُلُقك ودينك .. تلك هي قيمتك إذا كنت تبحث في حياتك عن طبيعة القيمة .. ولن يكون هناك أيّ رقم حسابي ينطلق في اتجاه المال او النسب او المركز او اللون او العرق فان أكرمكم عند الله اتقاكم .

وأخيراً .. إننا بحاجة إلى مواجهة هذا الواقع مواجهة اسلامية حاسمة لنتفادى الكثير من المشاكل العاطفية والاجتماعية التي يواجهها جيل الشباب والفتيات عندما يصطدمون بحاجز المال والمركز والنسب فيحول بينهم وبين الانطلاق مع عواطفهم الطاهرة ومشاعرهم الطيبة التي يعيشون معها روحية الحياة الزوجية في صدق وحنان ، وبذلك نحصل على الانسجام الفكري والعاطفي والعملي بين ما نؤمن به من الخط الاسلامي الاصيل للحياة ، وبين ما نمارسه في حياتنا العملية من مواقف .. وذلك هو سبيل الاسلام للبقاء والامتداد في وجدان اتباعه ، وفي خطواتهم في الحياة ..

٤ — الاتجاه الشهواني او النفعي في العلاقات الزوجية في اختيار المرأة

— أ — فقدنجد في طريقة الاختيار للزوجة ، أن الكثيرين يتجهون إلى اعتبار الجمال عنصراً أساسياً في الفتيات اللاتي يريدون الاقتران بهن ، بل ربما يكون هو العنصر الأساسي الوحيد كما نجده في الحالات الكثيرة التي يحصل فيها الحب من أول نظرة ، الأمر الذي يبعث على تأكيد الرغبة التي تنتهي إلى الزواج في نهاية المطاف، وفي هذا الاطار انطلقت اجواء الانحراف لتوجه ذهنية المرأة إلى

الاهتمام بالجوانب الجمالية الجسدية كقيمة أساسية كبيرة في حياتها ، باعتبارها الناحية التي تثير اهتمام الرجال ومحبتهم وتجعلها مرغوبة لديهم .. وقد ساهم ذلك في تطور الانحراف في خطين .. الاول : تطور عمليات التجميل بالوسائل المصطنعة سواء في ذلك بما تنتجه دور الازياء من ألوان الازياء ومستحضرات التجميل التي تستنزف الكثير من الجهد والاهتمام والمال والقلق النفسي المستمر الذي يبحث عن كل جديد يحفظ للجمال حيويته او شكله ..

الثاني : الإتجاه إلى عبادة الجسد من جانب المرأة في عملية استغراق ذاتي بماتملكه من عناصر جمالية جسدية .. ومن جانب الرجل .. في سعيه الدائب إلى عبادة الجمال المادي بعيداً عن كل جمال روحي ... وبذلك انحرف السلوك الاجتماعي في علاقة الرجل بالمرأة وبالعكس إلى الاتجاه الذي يواجه الحياة من موقع الرغبة والشهوة والمتعة وتنوّعت الاجواء الاجتماعية في تقديم احدث الوسائل في مجالات اللهو لتلبية هذه النوازع ومواجهة الحاجة الملحة إلى تعميق هذه الامور في واقع الحياة .

أمّا النتائج السلبية على علاقات الزواج .. فقدتمثلت في عدة امور .

١ — فشل كثير من الزيجات التي ارتكزت على عنصر الصورة الجمالية بعيداً عما يختفي وراء الصورة من ذهنية وروحية وسلوك.. لأن الرغبة المجنونة لا تسمح للعقل أن يتوقف قليلاً عند المحطات

الذاتية التي تدفعه الى التأمل والتفكير من اجل اتخاذ الموقف الهادىء العميق ... فاذا هدأت الرغبة .. وبدأت الحياة تطرح نفسها على العلاقة الزوجية من خلال قضاياها اليومية المتنوعة ومشاكلها الأنية المعقدة التي تبحث في الزوجة عن الفكر العميق والخلق القويم ، والذهنية المنفتحة .. التي تجعل منها شريكاً للحياة لا للفراش فحسب ... فستنفتح الهوّة من جديد لتقع كلما برزت مشكلة جديدة تبحث عن حلّ او عن مشاركة في الحل .. فيكون الموقف زيادة في تعقيدها كنتيجة للفهم السقيمْ والعقلية الضيقة والانفعال الاهوج .. وتنتهي القضية الى الحياة في الجحيم .. لو قدر للحياة الزوجية أن تستمر في مثل هذه الاجواء القلقة او تنتهي الى الطلاق الذي قد يهدم بسلبياته كثيراً من جوانب الحياة المشتركة للزوجين وللاولاد ..

٢ ـــ تحديد الفترة الزمنية لقوّة الزواج وحيويته .. بالفترة التي تستمر فيها الزوجة في المحافظة على جمالها .. بالعمر .. او بالصورة او بغير ذلك من الصحة والقوّة والنشاط .. لأن دلك هو الدي يعطي للتجربة عنصر الحيوية والنجاح .. فاذا ذبل الجمال .. وتقدم العمر .. وتبدلت الصورة وزالت الصحة .. ودبّ الوهن .. فقدت العلاقة مبرّرها وسرّ قوتها وتحوّلت الحياة في وعي الزوج المفتون بالجمال فحسب إلى عبء ثقيل يدفعه الى التخفف منه او الهروب بأكثر من أسلوب .. مما يدفع إلى مزيد من المخاصمات والمواقف الظالمة التي يحاول من خلالها التنفيس عن العقدة المكبوتة

في داخل النفس ..

٣ — تفريغ العلاقة الزوجية من طبيعتها الانسانية التي توحي للطرفين بالمودة والرحمة والسكينة من خلال وعي الدور التكويني الذي هيأ كلا منهما للأخر كعنصر مكمّل لذاته التي تبحث عما يملأ الفطرة في وجود الرفيق من الجنس الآخر .. مما يبعث أيّاً منهما إلى الدراسة الواعية للطاقات المتوفرة لدى رفيقه ، ليستثمرها ويستفيد منها وينسجم معها عند ارادته لتفجير طاقاته الروحية والفكرية والعملية .. وبالتالي ممارسة مسؤوليته من خلال موقعه الطبيعي في هذه العلاقة فلا يتجاوز دوره إلى دور أخر لا علاقة له به .. وهذا لا يتوفر الا من خلال الفهم الانساني لهذه العلاقة .. أمّا اذا انطلقت من موقع الرغبة الحيوانية التي لا ترى في المرأة الا جسداً مشحوناً بالرغبة فان العلاقة ستتحول الى اعتبار المرأة وسيلة للمتعة الحسيّة فحسب .. وستتأثر اوضاعها بهذه الذهنية لتخضع كل التصرفات لهذا التفكير وربما يؤدي ذلك الى الانانية في ممارسة الرغبة إنطلاقاً من شعور الرجل بحاجته الذاتية بعيداً عن الاحساس بالجانب الانساني الذي يفرض عليه التفكير برغبتها من موقع التفكير باشباع رغبته الحسيّة ..

ب — وقدنجد الكثيرين يتجهون إلى الجانب المالي للزوجة من أجل أن يحصلوا على ماتملكه من رصيد مالي ، انطلاقا من العقلية المادية التجارية التي ترى في الزواج أحدى الوسائل التي تؤدي إلى الربح وتحقيق الثروة من أقرب طريق .. سواءً في ذلك

الاشخاص الذين يملكون المال ويريدون مضاعفته من خلال الزواج ، او الاشخاص الذين لا يملكون شيئاً منه ، ويعملون على الحصول عليه من خلال ذلك ..

وقد يساهم هذا الاتجاه في عملية اختيار الزوجة إلى سلبيات عديدة تتصل بكرامته من جهة باعتبار شعور المرأة بأنها قد اشترته كزوج تماماً ، كما تشتري أية بضاعة تحتاجها من السوق ، وقد تتصل برغباته الذاتية عندما يقدم على التزويج بانسانة لا تملك الصفات المؤهلة لإسعاده من الجمال والكمال وغيرهما من الامور التي ترضي رغباته ونوازعه كما في الكثيرين من الشباب الذين يقترنون بالعجائز او كبيرات السن .. طمعاً في أموالهن ..

وقد تتصل بطبيعة الحياة الزوجية عندما تتعرض للانهيار كنتيجة لجفاف المنابع المالية أو للحصول على ما يريد منها من مال .. تماماً كأية شركة تتعرض للخسارة او تفقد فرص الربح ..

ج — وقد يشترك الجانبان — الجمالي والمالي — في افساد حياة الرجل والمرأة وحياة الآخرين .. عندما تتجه العلاقات المبنية على الرغبة والمصلحة الى استغلال ذلك في التوصل إلى مراكز ومواقف سياسية او اجتماعية تمس حياة الرجل او حياة الناس .. فيما اذا كان الرجل يملك القوة التي تؤهله للتدخل في القضايا العامة والخاصة للناس .. فتنطلق المرأة باسلحتها الجمالية او المالية لتوجيه خطواته العملية في أي موقع من مواقع السلطة إلى تقديم من يجب تأخيره او تأخير من يجب تقديمه أو اعطاء من لا يستحق

العطاء ، أو منع من لا يستحق المنع .. أو افساد جانب من جوانب حياة الأمة .. وغير ذلك من الأمور التي لا تتوافق مع مبادئه واخلاقه .. انطلاقاً من تركيزها على نقطة الضعف في ذاته إزاء فتنة الجمال وسطوة المال ..

* * *

وقد وقف الاسلام موقفاً حاسماً في هذا المجال . فأراد أن يوجه الانسان إلى تعميق النظرة إلى العناصر الاساسية في العلاقة الزوجية بالتأكيد على الجوانب الدائمة التي تملك الاستقرار والثبات واستبعاد الأمور الطارئة التي تعيش في اطار زمان معين او حالة معينة .. فقد ورد في الحديث الشريف .. عن رسول الله « ص » انه قام خطيباً فقال :

«أيها الناس إيّاكم وخضراء الدمن ، قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن ، قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء ..» (الكافي ج ٥ / ص ٣٣٢ .

فقد نلاحظ — في هذا الحديث التأكيد على دراسة البيئة التي نشأت فيها الفتاة ومدى تأثيرها في تكوين شخصيتها من ناحية الاخلاق والسلوك العام .. والتحذير من الاستغراق في الجمال الجسدي بعيداً عن الوعي الشامل للجوانب التي تجعل من العلاقة علاقة ناجحة سليمة ..

وقد جاء في الحديث عن أبي جعفر الأمام محمد الباقر (ع) قال : «أتى رجل النبي يستأمره في النكاح فقال له رسول الله «ص»:

إنكح وعليك بذات الدين تربت يداك[1]

وفي حديث هشام بن الحكم عن ابي عبد الله (جعفر الصادق) (ع) قال : «إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها أو مالها وكل إلى ذلك . وإذا تزوجها لدينها رزقها الله الجمال والمال ..»

الكافي ج ٥ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

وهكذا نجد الحس الديني لدى المرأة اساساً لعملية الاختيار الصالح في نظر الاسلام وذلك لأن التدين الحق يحوّل المرأة إلى عنصر خير في عواطفها ومشاعرها وتفكيرها وسلوكها ويدفعها إلى عدم الاندفاع وراء الانفعالات الشريرة وعدم التدخل فيما لا يعنيها ... ويقودها الى اطاعة زوجها في غير معصية الله وتقديس الحياة الزوجية حتى على حساب اعصابها وعواطفها طلبا لما عند الله سبحانه .. وذلك هو الفرق الكبير بين الانسان الذي يعتبر هدفه في الحياة تحقيق رضا الله ، وبين الانسان الذي يجد هدفه في تحقيق رغبات نفسه بعيداً عما يرضي الله ..

وقد ورد في الحديث الشريف .. فيما رواه الامام جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام قال : «قال النبي (ص) : ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الاسلام أفضل من زوجة تسرّه اذا نظر إليها

---

(١) قال في الصحاح : ترب الرجل : إفتقر كأنه لصق بالتراب ، يقال منه ترب يداه دعاء عليه .. أي لا أصاب خيراً . وقال الجذري : هذه الكلمة جارية على ألسنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ، ولا وقوع الأمر به كما يقولون قاتله الله .

وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله ..»

فقد اعتبر النبي الفائدة الكبرى — بعد الاسلام — هي الزوجة الصالحة المؤمنة التي يدفعها صلاحها وايمانها الى الوقوف عند حدود الله ، والتضحية في سبيل اطاعة زوجها والعمل على إسعاده ..

ولا بد لنا ، في هذا الاتجاه ، من توجيه التربية الاسلامية إلى العمل على العناية بالفتاة المسلمة من أجل ايجاد الاجواء الصالحة لاقامة الاسرة المسلمة على أساس التربية الصالحة في شخصية الفتاة المسلمة

لنترك للفتاة حرية المطالبة بالزواج :

٥ — افساح المجال إلى الفتاة للتعبير عن رغبتها في الزوج ، وعدم الانكار على ذلك بحجة انه ينافي الحياء ويجرح الاحساس بالعفاف .. وذلك لأن الحاجة إلى الزواج ، سواء من ناحية الغريزة الجنسية ، أو من ناحية الحاجة إلى الإستقرار والسكينة في ظل الحياة الزوجية ، من الأمور المشتركة بين الرجل والمرأة فلا معنى لاعطاء الحق للرجل أن يعبر عن رغبته لابيه او للآخرين باعتبار ذلك حقاً طبيعياً له .. وحرمان المرأة منه بحجة أنه يتنافى مع آدابها العامة ..

اننا نعتقد ان هذا من العادات التي لا تتناسب مع العقلية الاسلامية الواعية الواقعية التي تواجه الواقع من منطلق الصراحة والظروف الموضوعية التي تدفع اليه وتحيط به ..

وقد يرشدنا الى ذلك أن الصيغة المتعارفة في شرعية عقد

الزواج هي أن تبدأ المرأة في الايجاب فتقول للرجل : زوجتك نفسي على مهرٍ قدره كذا .. ويكون القبول من طرف الزوج بلفظ قبلت .. فقد نلاحظ فيه اهتمام الاسلام بكون الزوج مبادرة طبيعية من قبل الزوجة كتدليل على اعتبار ذلك شأناً من شؤونها التي تملك الحق في التعبير عنها قبل العقد وبعده ..

وقد نستفيد ذلك ، أيضاً في بعض اللمحات الرائعة في السيرة النبوية الشريفة فقد جاء في الحديث السابق الذي نقلناه عن ابي جعفر (محمد الباقر) (ع) قال : «جاءت إمرأة إلى النبي فقالت : زوجني فقال رسول الله : من لهذه فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله زوجنيها فقال : ما تعطيها فقال : ما لي شيء فقال : لا . قال : فأعادت ، فأعاد رسول الله الكلام فلم يقم أحد غير الرجل ثم أعادت فقال رسول الله في المرة الثالثة : أتحسن من القرآن شيئاً ، قال : نعم ، فقال : فقد زوّجتكما على ما تحسن من القرآن فعلمها اياه » . الكافي ج ٥ ٣٨٠ .

فقد رأينا أن رسول الله لم يعتبر هذا الطلب من المرأة للزواج شيئاً غير مستحب او غير طبيعي بل اعتبره شيئاً عادياً .. وبادر إلى الاستجابة له .. حتى اذا لم يجد أحداً يملك امر دفع المهر امتنع عن إتمامه .. وألحّت المرأة بالطلب ثانية وثالثة ، فلم يجد النبي في ذلك بأساً .. فلو كان في هذا الأمر ما ينافي حياء المرأة او عفافها او كرامتها لنهاها النبي او زجرها او نصحها باسلوب هادىء .. وعلى ضوء هذا فلا بد للعاملين في سبيل الاسلام أن يفسحوا المجال

للتخلص من هذا التقليد المستند الى مفاهيم ضيقة ظالمة .. لأن بقاء هذا الواقع يجعل الأمر تحت رحمة الظروف التي قد تهيىء لها زوجاً ، من دون كفاءة فتقبله لاضطرارها إلى الانتظار السلبي الذي يؤدي الى هذه النتائج .. وربما يمضي الوقت دون أن يتقدم إليها أحد .. أما اذا امكن لها أن تتسلم زمام المبادرة في طلب الزواج .. فإنها تستطيع البحث عن زوج يتناسب مع شخصيتها وطبيعتها ، تماماً كما هو حال الرجل عندما ينطلق ليبحث عن زوجة تناسبه .. ولن نحتاج في التخلص من هذه العقلية الضيقة إلا إلى الارتباط بالمفهوم الاسلامي الأصيل الذي يقول — كما في بعض الاحاديث — لا غيرة في الحلال ..

* * *

لنترك للزوجين حرية الإرادة في الاختيار :

٦ — الضغوط العائلية التي يمارسها الابوان او غيرهما في عملية اختيار الزوج او الزوجة .. فقد نلاحظ وجود واقع ضاغط على ارادة الشاب والفتاة في عملية الاختيار فيحاول الأب او الأم او الاقرباء الذين يملكون سلطة الضغط ، ان يفرضوا الزوجة التي يرونها للشاب ، أو يفرضوا الزوج الذي يختارونه للفتاة انطلاقاً من علاقات ذاتية ، تفرضها الصداقات الشخصية ، او الاوضاع العائلية ، او الاعتبارات المالية او الاجتماعية .. وقد يتمثل ذلك في بعض التقاليد العشائرية التي تفرض زواج ابن العم لابنة العم .. بالمستوى الذي يجعل له ولاهله الحق الاجتماعي في رفض أي

انسان يريد الزواج منها .. حتى في الحالات التي لا تساعده الظروف على اتمام الزوج فيها لنفسه ... وقد شارك هذا الواقع في حدوث كثير من المشاكل العاطفية والعائلية والاجتماعية كنتيجة طبيعية لعدم الانسجام العاطفي او الفكري او الروحي بين الشاب والفتاة في هذه العلاقات المفروضة .. بل ربما نجد هنا انسجاماً مضاداً — ان صح التعبير — كما في الحالات التي يتمثل فيها الشعور الداخلي في الرفض المطلق للشريك المفروض ..

او التعاطف مع انسان آخر في حالة حب وانسجام .. فترتكز الحياة الزوجية المفروضة على اساس التنافر والاختلاف والتصادم مما يعجل في حدوث المشاكل العاطفية والعملية .. وقد يؤدي الى انحرافات اخلاقية تفرض نفسها على واقع هذه الحياة ..

* * *

اننا نشعر بضرورة التخلص من هذا الواقع ، بالاعتراف بأن العلاقات الانسانية التي ترتكز على المشاعر الداخلية العميقة للانسان وعلى الانسجام الفكري والروحي بين الناس .. لا يمكن ان تفرض فرضاً ، أوتمارس باسلوب الضغوط التي تخنق حرية الارادة لدى الانسان .. بل يجب ان يفسح المجال فيها لحرية الاختيار لدى الطرفين .. ليتحمل كلّ منهما مسؤوليته تجاه نفسه في تقرير مصيره ومستقبله .. اما في الحالات التي نجد فيها المصلحة في الاتجاه المعاكس الذي يسير فيه الشباب او الفتاة فبامكاننا العمل على تقديم النصح لهما بمختلف الاساليب الفكرية والعاطفية ومحاولة عرض

الواقع بالطريقة التي تجسد لهما الخطأ في هذه العلاقة الجديدة ... ولا بد لمثل هذه الاساليب ان تؤدي الى النتيجة الطيبة اذا سارت على طريق الحكمة والتعقل .. فاذا لم نصل الى النتيجة التي نريدها فاننا نعتقد بضرورة اعطاء الحرية لهما للدخول في هذه العلاقة لمواجهة مصيرهما الذي يتحملان مسؤوليته ، لأن ممارسة الضغط لمنع هذه العلاقة ربما يضطرهما إلى البحث عن ممارستها بشكل غير مشروع او بطريقة بعيدة عن الرقابة الاجتماعية التي قد تحفظ الكثير من الخطى عن الانحراف والزلل .

وقد كان الاسلام منسجماً مع طبيعة الحرية الانسانية في عملية الاختيار في العلاقة الزوجية ضمن الشروط الشرعية ، فلم يوافق على أية علاقة تتم بالضغط والاكراه ، ولم يعتبرها علاقة شرعية .. لأن شرعية أيَّة علاقة تنطلق من التعاقد ، تخضع للارادة الحرة لدى المتعاقدين .. وقد يتحفظ بعض المجتهدين في اشتراط اذن الأب في صحة تزويج البكر .. انطلاقاً من بعض الاحاديث المرتكزة على اساليب وقائية .. ولكن ذلك لا يمنح الأب سلطة عقد الزواج بعيداً عن ارادة الفتاة واختيارها الحر المطلق .. فلو حدث أن تصرّف الأب بعيداً عن ارادة الفتاة .. لم يكن لهذا التصرف أي صفة شرعية .. واذا منعها من التزويج بالكفؤ ، فلا احترام لرأيه .. لأن اعتبار إذنه في الزواج انطلق من مصلحة الفتاة فاذا سار في غير مصلحتها فلا قيمة له في حساب الاسلام .. وفي هذه الحالة يمكنها انشاء علاقة زوجية بالانسان الكفؤ بعيداً عن

مراعاة رأي الأب المتعنّت ..

وقد ورد في بعض الاحاديث المأثورة عن النبي محمد « ص » فيما روي عن ابن عباس : «أن جارية بكراً جاءت إلى النبي (ص) فقالت : إن أبي زوّجني من ابن أخ له ليرفع خسيسته . وأنا له كارهة فقال «ص» : أجيزي ما صنع أبوك . فقالت : لا رغبة لي فيما صنع أبي قال «ص» : فاذهبي فانكحي من شئت . فقالت : لا رغبة لي عما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء في أمور بناتهم شيء[٢] ..»

وقد جاء في الحديث عن بعض أئمة اهل البيت (ع) فيما رواه صفوان .. قال : استشارخالد بن داود موسى بن جعفر (ع) في تزويج ابنته عليّ بن جعفر فقال : «إفعل، ويكون ذلك برضاها فان لها في نفسها حظاً .. »

واذا كانت بعض الاجتهادات الاسلامية تتحفظ فتعتبر اذن الأب في صحة زواج العذراء مضافاً الى رضاها ، كما اسلفنا ، فان ذلك يبقى محكوماً لحياة الاب ، أمّا في حال موته .. فلا ولاية لاحد عليها من قريب او من بعيد .. أمّا في الحالات التي يسبق لها الزواج ثم يموت زوجها او تطلق منه .. فلا رأي لابيها ولا لغيره بل هي أملك بنفسها من كل أحد .

أمّا الشاب فله مطلق الحرية في امر زواجه من دون تحفظ .. ولكن ذلك لا يمنع من ان يتوقف قليلاً ليتحرك في اختيار مصيره من موقع التأمل والتفكير والمشورة وليدرك انه جزء من مجتمع صغير

او كبير . ولذا فلا بد له من مراعاة الجوانب الاساسية التي تحكم علاقته بمجتمعه ، عندما يريد أن يُدخل إليه عنصراً جديداً ، لأن طبيعة اختيار هذا العنصر ، قد تترك تأثيراتها السلبية او الايجابية على حياته وحياة الآخرين الأمر الذي قد يساهم في إفشال هذه العلاقة او إنجاحها ، أو في اثارة المشاكل والتعقيدات التي قد تفقد حياته الاجواء الهادئة السعيدة .. ولهذا فقد يكون من الأفضل أن يتوقف كثيراً عند الحسابات الواقعية التي تعتبر أساساً للنجاح والفشل من ناحية موضوعية .. وذلك بدراسة طبيعة القضية من خلال خصائصه الذاتية .. ثم محاولة التعمق فيها من حيث علاقتها بالمجتمع من حوله .. وذلك بمحاولته الرجوع الى آراء الآخرين الذين قد يجد عندهم بعض الملاحظات الحيويّة التي لم يلتفت إليها لان الحالة العاطفية الشديدة قد تفقد الانسان الملاحظة الذكية المنطلقة من الموقع الحيادي في النظرة الى الواقع .

ولعل من اكثر الناس ارتباطاً بذلك هم الوالدان والاقربون .. فقد يرجح للانسان أن لا يغفل الاخذ بوجهة نظرهم كأساس للتأمل .. فاذا لم يجد فيها جانباً أساسياً يبعث على التحفظ امكن ان يتجاوزهم ويقف مع مصلحته الاساسية في الموضوع وقد وردت بعض اللمحات الرائعة التي تؤكد هذا الخط الذي يمنح الانسان الحرية في الوقوف ضد ارادة الابوين اذا لم يكن ذلك منسجماً مع مصلحته وعاطفته فقد ورد في الحديث عن الامام جعفر الصادق «ع» فيما رواه إبن أبي يعفور عنه قال : «قلت له : إني أريد أن

أتزوج امرأة وإن أبوي أرادا أن يزوّجاني غيرها فقال : تزوّج التي هويت ودع التي يهوى أبواك » .

وسائل الشيعة ج ٧/ص ٣٣٠ .

وربما نجد احاديث أخرى تدعو الانسان الى القبول برأي ابيه . فيما اذا لم يكن هناك ضرر ، انسجاماً مع طاعتهما واحترامهما ..

وقد ينبغي للابوين ان يدركا جيداً الطبيعة العملية لهذا الخط ويعرفا أنَّ العاطفة الساذجة لا تبني حياةً ، وان علاقاتهما الذاتية بالاشياء لا تربط اولادهما بها لانها تخضع لظروف خاصة قد تكون في غير مصلحة الاولاد .. لأن الاولاد قد يرتبطون بعلاقات تتناسب مع ظروفهم وافكارهم .. فلا يجوز ان يفرضا عليهم ما لا يريدون او يضغطوا على اراداتهم فتختار — من موقع الضغط — ما لا يتناسب مع طبيعة الحياة التي يحبونها ، والاجواء التي يريدون ان يعيشوا فيها .. وقد ورد في الحديث : « رحم الله والدين اعانا ولدهما على برّهما .. قيل : وكيف ذلك .. قال : يتقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يكلفه ما لا يطيق .. ».

* * *

خاتمة المطاف

ايها الأخوة ..

في هذا المجال يجب ان نعمل اذا أردنا التأكيد على صفة الاسلام في وجودنا أو أردنا ان يرتاح الانسان في ظل الاسلام .

إن علينا أن نعطي لا نفسنا في كل مرحلة من مراحل حياتنا فرصة نتأمل فيها عاداتنا وتقاليدنا ، ونتدارس الظروف التي هيأت لولادتها ، ثم ندرس ظروفنا مقارنةً بتلك الظروف ..، ثم نتخذ الموقف في ضوء هذه المقارنة الواعية على هدى الأسس التشريعية الخالصة الثابتة التي ارتكز عليها الاسلام في مفاهيمه ومصاديقه في تخطيطه الشامل للحياة لننطلق على أساس من وعي وعلى أساس من تأمل عميق .. لنطوّر حياتنا عل صورة الاسلام الحق قبل أن يطوّرها الآخرون على غير صورته عندما تندفع الحياة لعملية التطوير فاننا اذا لم ندرس مشاكلنا او نعالجها معالجة علمية موضوعية هادئة فسوف يأتي الآخرون ليفرضوا العلاج الذي يصفونه من خلال الفكر الذي يطرحونه للحياة .. وعند ذلك نعيش الضياع والازدواجية بين العقيدة والممارسة .. او بين النظرية والتطبيق .

وفي ختام هذا اللقاء .. أسأل الله سبحانه أن يجعل من هذه

العلاقة الزوجية المباركة أساساً لولادة أسرة سليمة على طريق الاسلام ، فتعيش مسؤولياتها من خلال ما يحبه الله ورسوله ... وأسأله سبحانه وتعالى أن يعيننا على أن نفهم أنفسنا جيداً .. ويوفقنا للتحرك الواعي من أجل الحصول على رضاه في حياتنا الفردية والاجتماعية ..

« و قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *